

شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني - رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٧)

ثم قال أبو عثمان:

(وأما ما حكاه محمد بن جرير عن أحمد رحمه الله أن من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، فإنما أراد أن السلف من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ ولم يوجههم الحال إليه، وإنما حدث الكلام في اللفظ من أهل التعمق وذوي الحمق الذين أتوا بالمحدثات، وعثوا) في نسخة وبجثوا ويظهر أنها تصحيف، لأن عثوا عما نُو عن مقتبسة من القرآن، فأراد الشيخ هذا.

(عما نُو عنه من الضلالات وذميم المقالات، وخاضوا فيما لم يخض فيه السلف من علماء الإسلام، فقال الإمام هذا القول في نفسه بدعة، ومن حق المتسنن أن يدعه، ولا يتفوه به ولا يمثله من البدع المبتدعة، ويقتصر على ما قاله السلف من الأئمة المتبعة أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه) وهذا واضح بين والله الحمد، نفهم من هذا ونستفيد أن علينا المحافظة على الألفاظ والتعبيرات القرآنية والنبوية الأثرية السلفية وألا نتوسع في الكلام لاسيما في هذه المقامات العظام مما يتعلق بصفات الرب عز وجل فإنها مزالقة خطيرة، فعلى الإنسان أن يحذر من التوسع في الكلام وتشقيق الجمل والاصطلاحات، وهذا يقع عند كثير من الكتاب المعاصرين، أن يتوسع في التعبير فيقع في مقالة المبتدعة.

ثم أسند رحمه الله فقال:

(أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجراحي بمرور، حدثنا يحيى بن ساسويه قال: حدثنا عبد الكريم السكري: قال وهب بن زمعة: أخبرني علي الباشاني قال: سمعت عبد الله بن

المبارك يقول: من كفر بحرف من القرآن فقد كفر بالقرآن، ومن قال: لا أو من بهذه اللام فقد كفر) في بعض النسخ تصحيف: ومن قال لا أو من بهذا الكلام، والصواب بهذه اللام، أراد الحرف، فقد كفر.

إذن هذا أيضًا مما أسنده عن إمام معتبر معروف، وهو أمير المؤمنين في الحديث عبد الله بن المبارك رحمه الله، فإنه قال:

(من كفر بحرف من القرآن فقد كفر بالقرآن، ومن قال: لا أو من بهذه اللام فقد كفر) انتهى الكلام عن صفة الكلام لله عز وجل، وعن الكلام في القرآن.

ثم انتقل رحمه الله عن مبحث شريف منيف، وهو مبحث العلو، فقال رحمه الله:

(ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله سبحانه فوق سبع سماواته) هذا التعبير متعقب في الحقيقة، قال عني في الحاشية الأفصح لَعَّةُ أن يقال: فوق سماواته السبع؛ لأن العدد لا يضاف إلى تمييز مضاف إلى ضمير، فالأفصح أن يقال: فوق سماواته السبع، ولكم المعنى متفق عليه.

(على عرشه مستوٍ كما نطق به كتابه في قوله عز وجل في سورة الأعراف: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وقوله جل وعلا في سورة يونس: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ}، وقوله في سورة الرعد: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وقوله في سورة الفرقان: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}، وقوله في سورة السجدة: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وقوله في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} سبعة مواضع، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وفي موضع واحد بلفظ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.

قال:

(وأخبر الله سبحانه عن فرعون اللعين أنه قال لـ هامان: {ابن لي صرحًا لعلِّي أبلغُ الأسبابَ * أسبابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}، وإنما قال ذلك لأنه سمع موسى عليه الصلاة والسلام يذكر أن ربه في السماء، ألا ترى إلى قوله: {وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}، يعني: في قوله: إن في السماء إلهًا.

وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف رحمهم الله لم يختلفوا في أن الله تعالى على عرشه، وعرشه فوق سمواته، يثبتون من ذلك ما أثبتته الله تعالى، ويؤمنون به، ويصدقون الرب جل جلاله في خبره، ويطلقون ما أطلقه سبحانه وتعالى من استوائه على عرشه، ويمرونه على ظاهره، ويكون علمه إلى ويقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}، كما أخبر الله تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يقولون ذلك، ورضي منهم فائني عليهم به) هذا المبحث هو مبحث العلو، ونعلم أن العلو صفة من صفات الله الذاتية، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى قد علا على عرشه، وأنه فوق جميع مخلوقاته بائن من خلقه منفصل عنهم ليس فيه شيء من خلقه ولا في خلقه شيء منه سبحانه، فالله تعالى له العلو المطلق له العلو في ذاته وله العلو في صفاته وله العلو في أفعاله، له علو القدر وله علو القهر وله علو الذات، وينقسم علو الله عز وجل إلى ثلاثة أقسام: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

فأما علو الذات: فمعناه أن الله سبحانه وتعالى فوق عرشه وعرشه فوق جميع مخلوقاته، وأنه سبحانه وتعالى ليس فيه شيء من مخلوقاته وليس منه شيء في مخلوقاته سبحانه وتعالى بل هو منفصل عن خلقه بائناً منهم له العلو المطلق في ذاته، وهذا النوع من العلو هو الذي وقع فيه التزاع بين أهل القبلة.

أما علو القدر: فالمقصود به أن صفاته علا وأسمائه حسنى، فقد بلغت كل صفة من صفاته المثل الأعلى في بابها، فسمعه أعلى السمع، وبصره أعلى البصر، وقدرته أعلى قدرة، وهكذا، ولهذا يقال: الأسماء الحسنى والصفات العلا {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}، فله المثل الأعلى في كل باب سبحانه وتعالى.

وأما علو القهر: فمعناه أن الله قد قهر جميع مخلوقاته سبحانه وتعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }.

وإن علو الله عز وجل قد ثبت بأنواع الثبوت المختلفة: ثبت بالكتاب، وثبت بالسنة، وبالإجماع، وبالعقل، وبالفطرة.

أما ثبوته بالكتاب فكثير حتى قال بعض أصحاب الإمام الشافعي رحمه الله: إن في القرآن ألف دليل على علو الله عز وجل. حكى ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ((الفتاوى الحموية)) أو غيرها في المجلد الخامس من ((الفتاوى)).

وثبت ذلك أيضاً في السنة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، هذا وقد تنوعت دلالة الكتاب والسنة على إثبات علو الله تنوعاً كثيراً تارة بذكر العلو صريحة مثل قول الله تعالى: { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }، و { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }، و { الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى }، هذا فيه ذكر العلو ذكراً صريحاً.

تارة يكون بذكر الفوقية والفوقية علو { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ }، { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((والله فوق العرش)) لما ذكر السماوات وأطباقها وأن العرش فوق ذلك قال: ((والله فوق العرش)).

وتارة يكون بذكر كونه في السماء ودليل ذلك { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ }، وأيضاً: { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } يعني أن ألوهيته ثابتة فيهما، وقول الله عز وجل: { أَأَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ }، ومن ذلك أيضاً قول الجارية لما سأها النبي صلى الله عليه وسلم: ((أين الله؟))، قالت: في السماء.

النوع الرابع: بذكر صعود الأشياء إليه ودليل ذلك قوله تعالى: { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } والصعود من المعلوم أنه يكون إلا إلى أعلى.

النوع الخامس: بذكر عروج الأشياء إليه ومثاله: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } .

وتارة يكون برفع الأشياء إليه والرفع لا يكون إلا إلى أعلى ودليله { وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }، وكذلك قال الله عز وجل عن عيسى: { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ }، وفي الآية الأخرى: { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ }، والرفع لا يكون إلا إلى أعلى.

وتارة يكون بذكر الاستواء لأن الاستواء يعني العلو { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } والآيات الأخرى المذكورة في الاستواء.

وتارة بذكر نزول الأشياء منه الملائكة تنزل من ربها، { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ }، { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ } إذا كما ترون الأدلة والله الحمد متكاثرة متنوعة في الكتاب والسنة على إثبات علو الله عز وجل، فهذه دلالة الكتاب وهذه دلالة السنة.

بعد ذلك دلالة الإجماع كما حكى أبو عثمان رحمه الله فقد أجمعت الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم على إثبات علو الله عز وجل.

أما إثبات دلالة العقل: كيف دل العقل على إثبات وجود الله؟

نقول: أنه ما من موجود يوجد في الخارج إلا لا بد أن يتصف إما بصفة كمال أو بصفة نقص، والعلو كمال، وماذا يقابل العلو السفلى، فإذا كان العلو كمال فلا بد أن تثبت لله عز وجل الكمال ونفسي عن الله النقص فنحن نرى عقلاً أن الأماكن الشريفة المرغوبة المطلوبة هي الأماكن المرتفعة العالية، وتجد الناس إذا أراد الرجل منهم أن يقيم بناءً هل يجعل بيته في الوديان السحيقة أم يجعله على الأكام والأماكن المرتفعة، يجعله على الأماكن المشرفة المرتفعة، فهذا يدلنا على أن العقل يدلنا على أن العقل يدل على أن العلو صفة كمال، فإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تثبت لله عز وجل صفات الكمال ونفسي عنه أضداها وهن صفات النقص.

أما دلالة الفطرة: كيف دلت الفطرة على إثبات العلو لله عز وجل؟

نقول: ما من مخلوق ولا أقول إنسان - ما من مخلوق إلا ويجد في قلبه حين يدعو ربه سبحانه وتعالى مشوقاً نحو العلو حتى البهائم حتى أنه يذكر أن البهيمة البعير أو غيره إذا ضرب ضرباً شديداً أنه يرفع طرفه إلى السماء يذكر ذلك أهل الخبرة، فالمرء مجبول على الاعتقاد بأن خالقه وبارئه في جهة العلو، ومما يذكر في هذا المقام قصة عجيبة وقعت بين يدي أبي المعالي الجويني الذي كان يلقب بإمام الحرمين وهو من أساطين الأشاعرة - عفا الله عنه - وإمام في اللغة وفي الفقه على المذهب الشافعي وكان لتبحره في العلوم وفي علم الكلام يلقب بإمام الحرمين، فكان يقرر في المسجد الحرام في باب الاعتقاد وبين يديه الطلبة وفيهم أبو جعفر الهمداني من أهل السنة، فقال الجويني: كان الله ولا شيء - هذه جملة صحيحة ولا شك فالله عز وجل هو الأول فليس قبله شيء - وهو الآن على ما كان عليه، يعرض بنفي العلو والاستواء من أن الله عز وجل لا تطرأ عليه الحوادث - وهذه المقدمة يستخدمها المتقدمون لإبطال الصفات الفعلية لله عز وجل فظاهر القرآن كما سمعتم أن الله استوى بعد أن لم يكن مستوياً؛ لأنه أتى بضم التي تفيد التركيب والتراخي فهؤلاء المتكلمون بسبب ما تلوثت به عقولهم من علم المنطق والكلام اليوناني قعدوا هذه القواعد التي أضلتهم - وقال: وهو الآن على ما كان عليه يعني يريد أن ينكر بذلك إثبات العلو والاستواء لله عز وجل، ففهم الهمداني مراده فقال له: يا إمام دعني من ذكر العلو والاستواء وأخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحد في قلبه ما قال عارف قط يا الله إلا ووجد في قلبه ضرورة في طلب

العلو لا يلتف يمناً ولا يسرا وقال: فجعل الجويني يلطم على رأسه ، ويقول: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني؛ لأنه لم يستطع جواباً على هذا الدليل الفطري الذي يجده كل عارف بالله، سواء كان متعلماً أو أمياً، ما من إنسان يدعوا الله مخلصاً يقول: يا رب، يا رب، يا رب، إلا وجد قلبه يسافر نحو جهة العلو، لا يلتفت قلبه يمناً ولا يسرةً ولا أمام ولا خلف بل يتجه نحو العلو.

فهذا الاعتقاد هو ما كان عليه السلف الصالح من الصاحبة والتابعين إثبات العلو لله عز وجل بجميع أنواعه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

وأما أهل البدع فقد تنوعت في هذا مقالتهم تنوعاً مزعجاً منهم - والعياذ بالله - حلولية الجهمية الذين يقولون: إن الله حالٌ في كل مكان - عياداً بالله - ويشبهون آيات المعية في قول الله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ }، { إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ } ونحو ذلك، ويقولون: إن آيات المعية تدل على الحلول تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، والمعية تأتي الكلام عنها، ولكنها معاذ الله أن يكون معناها في هذا السياق الحلول والاختلاط، وإنما المعية تدل على مطلق المقارنة والمصاحبة، فأنت تقول مثلاً: ما زلت أسير والقمر معي وأين القمر في السماء، ومع ذلك تقول: معي، يعني أنك لم تزل تسير في ضوء القمر.

ومثلهم أو قريب منهم - والعياذ بالله - بل أشنع منهم الاتحادية الذين يقولون بالاتحاد العام، والاتحاد الخاص من غلاة الصوفية فيزعم زاعمهم أن الله يتحد بشخص أو يتحد ببعض الأعيان والمخلوقات، وهم إنما أخذوا ذلك عن النصراني الذي زعموا بحلول الله سبحانه وتعالى في المسيح، تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً، فإن من أكبر عقائد النصراني أتباع بولس عقيدة التجسد والحلول، فهؤلاء الاتحادية يعتقدون أن الله يحل في كل شيء وفي كل مكان حتى قال قائلهم:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان قد حللنا بدناً

وقال آخر وقد لبس جبهه، قال: ما في جبهه إلا الله - تعالى الله عما يقولون - .

وسمع أحدهم غراباً فقال: لبيك لبيك، ثم خر مغشياً عليه، لما قام في قلبه - والعياذ بالله - من اعتقاد الحلول، وأنه إنما سمع الله وأنه حل فيه، فهذه مقالات بشعة دنيئة، لكن إنما نقولها من باب العلم الذي ينبغي أن يقف عليه طلبة العلم.

ومن المقالات في هذا المقالة متأخري الجهمية الذي نفوا الجهات الستة فقالوا: إن الله تعالى لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال وأمام ولا خلف، إذا أين الله، هم طبعاً ينكرون أن يقول الإنسان: أين الله، وقد قالها خير البشر وسيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم فقال للجارية: ((أين الله؟))، فقالت: في السماء، فقال: ((من أنا؟))، قالت: رسول الله، قال: ((أعتقها فإنها مؤمنة))، فجعل ذلك دليل على الإيمان اعتقادها بعلو الله عز وجل، فذلك تجد في بعض خطبهم في كتبهم: متره عن الأين والكيف، وقولهم: متره عن الأين، باطل، وأما قوله: متره عن الكيف ففيه تفصيل، فإن أرادوا أنه داخل لا كيف؟؟ فهذا التعطيل المحض، وإن أرادوا أنه متره عن أن يكيفه خلقه فهذا حق، إذا فهؤلاء الجهمية ومقاتلتهم يقول الأشاعرة ينفون عن الله الجهات الستة، يقول: لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف - عياداً بالله - هذا عين التعطيل إذا أين يذهب العبد أين يتجه لا بد من قلبه من قبله كيف يدعو ربه.

وأنبه في هذا المقال على جملة يقولها بعض الناس تأثراً بمقالة الحلولية حينما يقول بعضهم: ربنا في كل مكان هذه كلمة باطلة لا يجوز أن يقال: ربنا في كل مكان، فالله عز وجل فوق سماواته مستوٍ على عرشه بائن من خلقه منفصل عنهم، بل يقال: علمه في كل مكان، أما هو سبحانه بذاته فإنه لا يختلط بخلقته، هو فوق سماواته مستوٍ على عرشه.

هذا ما يتعلق بمبحث العلو.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونيبه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.